بسم الله الرحمن الرحيم

المتصل المادي – القيمي ومشكلات الإسلام مع الحضارة الغربية

بالإشارة الخاصة لنموذج

(صراع الحضارات – إعادة صنع النظام العالمي)

ل.صامويل هنتنجتون

إعداد : د.عمر يوسف الطيب*

1/الإرث الصراعي في الحضارة الغربية وتداعياته العالمية

قضت البشرية منذ أن أُرخ لها ميلاديا حوالي العشرين قرنا لم يعرف الغرب خلالها تعاونا وتبادلا متكافئا مع شعوبها أو حوارا بين حضاراتها. بل كان ينظر إليها على أنها حضارات دونية يجب أن تخضع لحضاراتهفقد كان هَم الاسكندر،كما يذهب حنفي، تحويل العالم كله إلى أرض يونانية لغة وثقافة ونظما وأثرا باسم التنوير[1]. وكذلك كان لدى الإغريق إحساس غريب ومسيطر في أنهم أنبل الناس وأكرمهم،وأن ما عداهم من الشعوب المجاورة ما هم إلا برابرة لا يحسنون حتى تدبير شؤونهم الخاصة ، وانهم لذلك في حاجة إلى الإغريق للقيام بمهمة حكمهم. ومن نفس هذا التصور الفلسفي الأسطوري نشأت فكرة الاستعمار والاستعلاء ، وما تبع ذلك من التوسع على حساب الآخرين ، والذي ورثته الحضارة الغربية المعاصرة إلى حد كبير . وليس أدل على عشوائية هذا التصور وعدم مصداقيته،كما يورد إمام، من أن الفرس كانوا اعرق حضارة وابعد شأنا في التمدن والعلوم والآداب من الإغريق. وكذلك كان للصين القديمة والهند القديمة حضارات عريقة . هذا إلى جانب حضارات الجزيرة العربية وحضارات حوض البحر المتوسط، خاصة الحضارة النوبية والحضارة المصرية القديمة والحضارة الفينيقية وغيرها من الحضارات القديمة[2].

ثم على اثر انتقال السلطة السياسية بعد هزيمتهم لمقدونيا جاء الرومان فأحالوا الحلم اليوناني في حكم العالم إلى واقع معاش ، فأقاموا عن طريق الغزو المسلح إمبراطورية مترامية الأطراف، شملت أجزاء كبيرة من العالم القديم . وقد تميزت هذه الفترة من تاريخ العالم بالسيطرة والهيمنة الرومانية التي أخذت الطابع الاستعماري . حيث انتشر الرومان شرقا وغربا وتحول البحر الأبيض المتوسط بشواطئه الشمالية في أوروبا والجنوبية في أفريقيا والشرقية في آسيا الصغرى إلى بحيرة رومانية لغة وثقافة وحصونا وحاميات .ثم بعد أن وهنت قوة الإمبراطورية الرومانية بسبب ضعف قوة الأباطرة وازدياد نفوذ الكنيسة وقيام نظام الإقطاع،دخلت أوروبا فيما عرف في تاريخها الوسيط بالعصور المظلمة. وقد اتسمت تلك الفترة بنشوب الصراع بين البابا (السلطة الدينية) والإمبراطور (السلطة السياسية). وقد كان البابا مدعوما في هذا الصراع

---

* جامعة النيلين-قسم الاجتماع

[1] حنفي، حسن: "الإسلام والغرب: صراع أم حوار". ورقة علمية قدمت في مؤتمر مؤسسة آل البيت للفكر الإسلامي،عمان،المملكة الأردنية الهاشمية،جمادى الأول 1423هـ ،أغسطس2002م،ص4.

[2] إمام،زكريا بشير: "مدخل إلى النظرية السياسية في القرآن الكريم". دار هيزر للنشر،1999م،ص26-27.

برجالات الإقطاع والذين تمردوا على الإمبراطور، وقوضوا من سلطة الدولة المركزية،وأسسوا الجيوش،وحاربوا بعضهم البعض من أجل تأكيد مراكزهم. وقد كان الشعب وحده هو وقود هذا الصراع الذي استمر لحوالي القرنين. ثم فتح الإسلام تلك البلدان وورث الإمبراطوريتين اليونانية والرومانية غربا بل والفارسية والهندية شرقا ...وانتشرت اللغة والثقافة العربية حول البحر الأبيض المتوسط شمالاً وجنوباً . وأقام المسلمون حوار للحضارات والذي ازدهر واكتمل في الأندلس وفي غرناطة وقرطبة واشبيلية وطليطلة وفي صقلية وجنوب إيطاليا وشمالها في جامعة بادو بالإضافة إلى مدارس القيروان والقاهرة وبغداد والبصرة والكوفة وبلخ ونيسابور وسمرقند[3]. ثم عاد الرومان لغزو العالم الإسلامي من جديد فيما عرف بالحروب الصليبية والتي استمرت زهاء القرنين هي الأخرى . وقد كان هدفها الاستيلاء علي قلب العالم الإسلامي في فلسطين والقضاء على إقامة إمبراطورية رومانية مسيحية عالمية . وكما يورد حنفي[4]: أتي الغرب غازياً لبلاد المسلمين وعاد متحضراً. لزم عسكرياً وتعلم حضارياً علم المسلمين وثقافتهم. ولقد كان لحيوية الحضارة الإسلامية وقوتها الذاتية الدافعة لها إلى التطور والتقدم والإبداع،الأثر القوي في نقل روح المدنية إلى العالم الغربي وذلك بقوة دفع التفاعل الحضاري. وهو الأمر الذي يعترف به ويشهد له معظم الكتاب والمؤرخين والمفكرين الأوربيين الذين برئوا من الهوى والغرض،وكتبوا بإنصاف عن خاصية التفاعل الحضاري في الحضارة الإسلامية. وهاهو "كرستوفر دوسن" ،كما يروى التويجرى، يذهب في كتابه "تكوين أوربا" إلى أن الحضارة الإسلامية احتفظت بمركز الصدارة منذ أوائل العصور الوسطي فصاعداً لا في الشرق فحسب بل كذلك في غرب أوربا،إذ نمت الحضارة الغربية في ظلال الحضارة الإسلامية التي هي أكثر منها رقيا وقتذاك. وكانت الحضارة الإسلامية العربية – لا البيزنطية – هي التي ساعدت العالم المسيحي في العصور الوسطي علي استرداد نصيبه من التراث اليوناني العلمي والفلسفي[5]. ويواصل التويجري قائلاً "ولعلنا لا نغالي إذا أكدنا هنا، علي أن الإسلام ... وهو دعوة الله إلى الناس كافة ورسالته _ سبحانه _ إلى العالمين هو الدين الذي يدعو إلى التفاعل الحضاري دعوة صريحة وقوية ، ويحث عليه حثاً علي اعتبار أن الحوار الذي نادي به الإسلام هو في طبيعته وجوهرة تفاعل حضاري. كما لا نحتاج إلى القول أن قاعدة التسامح التي يقوم عليها الإسلام فتحت أمام الأمة الإسلامية السبيل إلى الاحتكاك الواسع بالأمم والشعوب وشجعت الحضارة الإسلامية علي التفاعل مع الثقافات والحضارات جميعاً "[6]. وفي نفس هذا المعني يقول روبرت بريفلوت (1876-1940) في كتابة "بناء الإنسانية"،كما يورد المهدي "أنه لولا العرب لما ظهرت الحضارة

---

[3] حنفي،حسن: مرجع سابق،ص2.

[4] المرجع السابق،ص2.

[5] التويجري،عبدالعزيز بن عثمان: "صراع الحضارات في المفهوم الإسلامي". ورقة علمية قدمت في مؤتمر مؤسسة آل البيت للفكر الإسلامي،عمان،المملكة الأردنية الهاشمية،جمادى الأول1423هـ، أغسطس2002م،ص14.

[6] التويجري،عبدالعزيز بن عثمان،المرجع السابق،ص14-15.

الأوربية الحديثة،ومن المؤكد أيضا أنه لولاهم لما اكتسبت الحضارة الأوربية الحديثة الصفات التي مكنتها من التسامي علي كافة مراحل تطور الإنسانية"[7]. كذلك يورد قطب قول بريفلوت "أنه ليس ثمة ناحية واحدة من نواحي الازدهار الأوروبي إلا ويمكن إرجاع أصلها إلى مؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة"[8].

وبالرغم من هذه الأقوال الواضحة والصريحة إلا أن الكثير من مفكري الغرب يزعمون أن الحضارة الغربية الحديثة هي إنجاز غربي فريد . بل يعتبرون أن واجبهم المصيري أن ينقلوا حضاراتهم هذه للعالم كله ،ويزعمون أن هذه هي رسالة الرجل الأبيض إلى بقية أجناس المعمورة. وتكمن خطورة هذه النظرة ، كما يورد المهدي،في عدوانية الحضارة الغربية وفي المشاكل التي سوف تكرس العداء بينها وبين الحضارات الأخرى[9].

ثم ومنذ القرن الثامن عشر الميلادي وعبر القرن التاسع عشر،وعلي أثر تفوقه الاقتصادي والتكنولوجي والعسكري، بسبب الثورة الصناعية ، بدأ الغرب غزوه الاستعماري المسلح علي العالم غير الغربي في أفريقيا وأسيا وغيرها. وقد تمكن عن طريق هذا الغزو من الاستيلاء علي مناطق كثيرة في هاتين القارتين وغيرها من مناطق العالم. ولقد قضي الأوربيون خلال هذا الغزو الاحتلالي علي هويات الشعوب المتمثلة في ثقافاتها ولغاتها وتقاليدها وذلك باسم الحداثة والثقافة العالمية الواحدة، كما دمروا اقتصادياتها من أجل رواج الاقتصاد الأوربي. وكما يورد القنوص."فإن الدول الاستعمارية قد سعت إلى فرض جميع أساليب الاضطهاد بمختلف أنواعه وذلك بقصد نهب ثروات العالم الثالث وتحويلها إلى مصدر أساسي للمواد الأولية وللقوي العاملة ، تسخر لخدمة الاحتكارات الرأسمالية ذات النفوذ القوي في البلدان المستعمرة وفتح الطريق أمام حركة تسويق اقتصاديات تلك البلدان[10]. ويقول القنوص في موقع آخر من المرجع نفسه "إن ذهب وفضة أمريكا الوسطي وأمريكا الجنوبية - وكان يستخرجهما الأفارقة -قد لعبتا دوراً حاسماً ومهماً في توفير الاحتياجات من العملة في دعم اقتصاديات النقد الرأسمالي في أوروبا الغربية. كما ساعد الذهب الأفريقي والعاج دولة البرتقال في تمويل الرحلات البحرية البعيدة المدى حول رأس الرجاء الصالح إلى آسيا بدءاً من القرن الخامس عشر الميلادي فصاعداً . وكان الذهب الأفريقي أيضا المصدر الرئيس لصك العملة الهولندية مما ساعد امستردام علي أن تصبح الممول المالي لأوروبا في تلك الحقبة التاريخية[11]. ويواصل القنوص الحديث عن استنزاف موارد الدول المستعمرة فيقول في موقع آخر "أنه ومن خلال استطرادنا في الحديث عن تجارة الرقيق الأوربية

---

[7] المهدي،الصادق: "الحضارات الإنسانية تصارع أم تحاور" ورقة مقدمة لمؤتمر حوار الحضارات،جامعة النيلين،6-8مارس 2003م،ص5.

[8] محمد قطب: "التطور والثبات في حياة البشرية" مكتبة وهبة 142 شارع الجمهورية،عابدين ،القاهرة، ص269.

[9] المهدي،الصادق: المرجع السابق،ص7.

[10] قنوص،صبحي محمد: "أزمة التنمية: دراسة تحليلية للواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي لبلدان العالم الثالث" 1990م،ص7.

[11] قنوص،صبحي محمد: المرجع السابق،ص62.

يتوجب علينا أن نخص بالذكر الولايات المتحدة الأمريكية. وهذا لا يرجع إلى أن معظم سكانها كانوا من الأوربيين فحسب، وا ٍنما أيضاً إلى أن أوربا عملت علي نقل مؤسساتها الرأسمالية بالكامل إلى أمريكا الشمالية علي نحو لم تشهده أيمنطقة جغرافية من العالم ، وبنت شكلاً قوياً للرأسمالية بعد أن تم إبادة السكان الأصليين (الهنود الحمر) واستغلال الملايين من الرقيق الذين تم تصديرهم من أفريقيا وجزر الهند وأمريكا اللاتينية، كوسيلة من وسائل رأس المال وا ٍعادة تصديره إلى أوربا"[12].

وفى نفس هذا المسار التحليلي لأبراز الارث الصراعي في الحضارة الغربية وتداعياته العالمية، يأتي نافعة ليقول :

"أن التمييز بين الخصائص المادية للنموذج الأمريكي ، بحكم ما يملكه من مقومات غير مسبوقة لعناصر القوة المادية ، وبين خصائصه المعنوية ، بحكم ما يمثله من قيم تعكس الخصوصية الثقافية للتجربة ، يعد مفتاحا أساسيا لفهم طبيعة وحقيقة السلوك الأمريكي على المسرح الدولي... فالقوة المادية للدولة الأمريكية مسخرة بالأساس لخدمة مصالح ومنافع خاصة وأنانية ، وليست موجهه للاضطلاع برسالة إنسانية . وليس هذا بغريب على تجربة قامت في بعض جوانبها ومراحلها التاريخية على العنف والعنصرية واستئصال الآخر ... وحتى إذا افترضنا أن التجربة الأمريكية قد تمكنت بالفعل من تجاوز كافة سلبياتها ومسالبها التاريخية وبلورت نظاما وصل إلى درجة من النضج تجعل من منظومة قيمه السائدة حاليا مثالا يحتذي ، فان القيمة الحقيقية لأي نموذج، كما يذهب نافعة ، تتبع من قدرته على التحول إلى قدوه تلهم الآخرين وليس إلى صيغة تفرض بقوة السلاح . ثم يواصل نافعة نقده قائلا أن لدينا تجربة الاستعمار الأوروبي التقليدي الذي يشير تاريخه الأسود إلى انه اخضع شعوب القارات الثلاث بقوة السلاح وليس بقوة شعارات التنوير والتحديث والرسالة الحضارية التي حاول بها خداع الشعوب ، وظل يحكم في بعض المستعمرات عشرات، بل ومئات السنين دون أن يخلف في النهاية سوى مجتمعات مشوهه ومختلة التوازن اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا . بل وكثيرا ما تسبب الاستعمار الأوروبي في قطع الطريق على احتمالات التحول الديمقراطي النابع من الداخل ومن الذات ."[13]

وما دام الحديث يدور عن دور الاستعمار في تخلف دول العالم الثالث نؤكد هنا انه لا يمكن لهذه الدول أن تخرج من واقع التخلف والتبعية إلا من خلال إعادة النظر في بناء هياكلها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية . وان هذا في حد ذاته لا يمكن أن يتحقق إلا باعتماد ثورة ثقافية ذاتية أساسها العلم والتكنولوجيا واستخداماتهما بصورة واسعة في مجال الإنتاج والتنظيم والإدارة.

---

[12] نفس المرجع،ص65.

[13] نافعة، حسن: "المثقف العربي والأمير الأمريكي: فؤاد عجمي نموذجا". المستقبل العربي،العدد289 مارس2003م،مركز دراسات الوحدة العربية،الحمراء،بيروت،لبنان،ص47.

هذا ما حدث واقعاً ، أما علي المستوي الفكري فقد كانت الأفكار الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي برزت في أوربا خلال القرنين التاسع عشر والعشرين أفكاراً صراعيه هي الأخرى. فالفكر الشيوعي ، وهو فكر أوربي الأصل ، قد قام صراحة علي مبدأ الصراع الطبقي . وبنفس المنطق جاءت النظرية الدارونية بمقولات الصراع من أجل الحياة والبقاء للأصلح فأحلت الصراع محل نظريات التوافق مع الطبيعة. وفي عمق هذا المسلسل الصراعي جاء بعض علماء الغرب ليطرحوا مقولة صراع الحضارات وحتمية حدوثه . ويأتي في مقدمة هؤلاء صامويل هنتنجتون في كتابه "صراع الحضارات - إعادة صنع النظام العالمي" الصادر في سنة 1996م والذي طرح فيه نموذجه حول صراع الحضارات. وهو في حقيقته نموذج التغريب"Westernization" ،والذي اتبعه الغرب في تعامله مع الحضارات غير الغربية التي غلب عليها عن طريق الاحتلال المسلح. ويرتكز النموذج بصورة أساسية علي مبدأ الصراع مع الحضارات المغلوبة بهدف القضاء عليها باسم الحداثة والثقافة العالمية الواحدة. ومنذ بدايات العهد الاحتلالي وحتى اليوم يعمل الغرب عن طريق هذا النموذج علي فرض حضارته وبسط سيطرتها علي بقية الحضارات.

هذا وفي مقابل نموذج صراع الحضارات الذي اتبعه الغرب. فقد أخذ الإسلام،ومنذ بدايات انتشاره،بنموذج حوار الحضارات وتفاعلها. ويقوم النموذج علي مبادئ الأخذ والعطاء والندية بين جميع الحضارات. وهو في الأصل، كما يورد حنفي[14] نموذج شرقي قديم بدأ في الصين الكونفوشيوسية وفي اليابان الشنتوية عندما انفتحتا علي البوذية القادمة من الهند. وفي مصر القديمة وبلاد ما بين النهرين عندما انفتحتا علي حضارات الشام (العبرانية ،الكنعانية والمسيحية). إلا أن النموذج قد بلغ ذروته على أثر ظهور الإسلام وانتشاره وتفاعله الكبير مع الحضارات الأخرى. وكان من نتيجة ذلك انبثاق الحضارة الإسلامية والتي تجمع بين طياتها إنجازات معظم هذه الحضارات دون تعال أو هيمنة،رغم غلبته. هذا وقد نتج عن نموذج حوار الحضارات، الذي اتبعه الإسلام،تواصلا وتراكما حضاريا فاض خيراً علي البشرية جمعا. بينما تمخض نموذج صراع الحضارات،والذي أخذ به الغرب،عن انقطاع ومركزية حضارية وعنجهية وعقدة عظمة غر بية أدخلت العالم كله في مستنقع خطير من الصراعات العرقية والاقتصادية والسياسية والدينية يشهد العالم حالياً أسوأ تطوراتها.

ملخص النموذج

طرح هنتنجتون في نموذجه حول صراع الحضارات أن الثقافة والهويات الثقافية والتي هي على المستوى العام هويات حضارية هى التي تشكل أنماط التماسك والتفسخ والصراع في العالم ما بعد الحرب الباردة . وان الصراعات المستقبلية سوف تشعلها عوامل ثقافية أكثر منها اقتصادية أو أيدلوجية . وأن الغرب

---

[14] حنفي،حسن: مرجع سابق،ص7.

حاليا هو أقوى الحضارات وسيظل كذلك لسنوات قادمة.[15] وبينما يحاول الغرب أن يؤكد ويحمى مصالحه تواجهه وتقف أمامه في تحقيق ذلك المجتمعات غير الغربية والتي تحاول هى الأخرى توسيع قوتها الاقتصادية والعسكرية وأن تتوازن مع الغرب . وهكذا فان تقابل قوة وثقافة الغرب مع قوة وثقافة الحضارات الأخرى سوف يكون محورا مركزيا للسياسة في العالم ما بعد الحرب الباردة. وهو يتكون من ثمان حضارات كبرى هى :الصينية ، اليابانية ، الهندية ، الإسلامية ، الأرثوذكسية ، اللاتينية ، الأفريقية ثم الغربية والتي تجمع أوروبا ، أمريكا الشمالية ، استراليا ونيوزيلندا. ثم ابرز الحضارة الصينية والإسلامية بوصفهما الحضارتان اللتان تشكلان خطرا على الحضارة الغربية لأنهما،كما يذهب، الحضارات الديناميكية في الربع الأخير من القرن العشرين. الأولى،كما يزعم،بسبب نموها الاقتصادي والثانية، وهى الأعظم خطرا،بسبب التعبئة الاجتماعية والنمو السكاني . وكل من هذه التحديات لها آثارها على استقرار السياسة العالمية في القرن الواحد والعشرين[16]. بل ذهب إلى القول انه إذا كان في الصين بارقة أمل مع ما يظهر فيها من مؤشرات للتكيف مع المتغيرات (تطويق الشيوعية) فإنه في حالة الإسلام فلا أمل مطلقاً بسبب العجز الديمقراطي المفرط،حسب زعمه. أما في بقية أنحاء آسيا فإن النمو الاقتصادى،عند هنتنجتون،سيؤدى إلى تعددية اكثر وديمقراطية أشمل. غير أن ذلك،في رأيه،لا يعنى أن يكون هناك توجها نحو الغرب،إذ أن هذه المجتمعات ما فتئت تؤكد قيمها الثقافية الخاصة وترفض تلك المفروضة عليها من الغرب. حيث أن الآسيويين يعتقدون بصورة ثابتة أن النجاح الاقتصادى الذي حققوه جاء نتيجة للثقافة الآسيوية التي هى في نظرهم أرقى من ثقافة الغرب المتفسخة اجتماعيا[17].

أما الإسلام فهو في نظر هنتنجتون ليس مجرد دين بل أسلوب حياة. وما الصحوة الإسلامية،كما يقول،إلا جهد يبذله المسلمون لتحقيق هذا الهدف. وهى عنده،أي الصحوة الإسلامية،حركة فكرية ثقافية اجتماعية وسياسية عريضة تنتشر الآن في معظم أنحاء العالم الإسلامي[18]. وهذه الصحوة،كما يذهب،ليست رافضة للحداثة بل هي رافضة للغرب وللثقافة العلمانية،وهى إعلان كله كبرياء للاستقلال الثقافي عن الغرب. وهو يرى أنها جزء من الصحوة الدينية العالمية،والتي هى نتاج للتحديث،وهى تسعى للامساك به والإسهام فيه،مع رفضها في نفس الوقت للثقافة الغربية[19].

ومثل هذه النتائج تسقط،في نظر هنتنجتون،قيام نظام عالمي متعدد الحضارات ومتعايش سلميا. ولذلك فهو يرى أن بقاء الغرب،وهو يشمل،كما ذكرنا سابقا،أوروبا،الولايات المتحدة الأمريكية،استراليا

---

[15] هنتنجتون،صامويل: "صدام الحضارات: لإعادة صنع النظام العالمي". سايمون وشيستر،مركز روكلفر، نيويورك،1999م،ترجمة طلعت الشايب،ص47.

[16] نفس المرجع،ص170.

[17] نفس المرجع،ص177.

[18] هنتنجتون، صامويل: المرجع السابق،ص181.

[19] نفس المرجع،ص168.

ونيوزيلندا،يتوقف على الأمريكيين بتأكيدهم على الهوية الغربية،ثم على الأوروبيين باتحادهم من أجل تجديد الحضارة الغربية والحفاظ عليها ضد التحديات القادمة من الحضارات غير الغربية ، وخاصة من الحضارتين الصينية والإسلامية. فهو يؤكد، في اكثر من موقع،تصادم الغرب مع هاتين الحضارتين على وجه التحديد،ويرى أن تجنب حرب حضارات كونية يتوقف على قبول قادة العالم بالشخصية متعددة الحضارات للسياسة الدولية،وتعاونهم في الحفاظ عليها[20].

على ضوء ما سبق فان هنتنجتون يرى أن الإسلام هو الأكثر خطرا على الحضارة الغربية. وقد أبرز أن هذا الخطر يقع في محورين هما: الانفجار السكاني والصحوة الإسلامية،وقد أورد إحصاءات سكانية دالة على هذا النمو. ثم أشار إلى ثلاثة أخطار على الغرب من جراء هذا النمو السكاني. أوضح في الأولى خطر الشباب ووصفهم بوقود الحركات الإسلامية وأعطى أمثلة من إيران والجزائر[21]. وأوضح في الثانية إن النمو السكاني سيكون عاملا مساعدا في الصراعات على طول حدود العالم الإسلامي مع الشعوب الأخرى .ثم أوضح في الثالثة إن ركودا اقتصاديا سيصاحب النمو السكاني في الدول الإسلامية مما يؤدى إلى هجرة الكثير من المسلمين إلى الغرب .ونتيجة لمشكلات عدم التكيف الاقتصادي والاجتماعي والسياسي فسوف تحدث ردة فعل متطرفة في المجتمعات الغربية المستقبلة لهذه الهجرات[22].

ومما يجعل الإسلام في نظرة خطرا عظيما على الغرب إن المجتمعات الإسلامية تظهر فشلا كبيرا نحو قيام الديمقراطية،بينما المجتمعات ذات التراث المسيحي تتقدم في هذا الاتجاه .ويعزى ذلك إلى طبيعة الثقافة الإسلامية والمجتمع الإسلامي الرافضة لمفاهيم الغرب اللبرالية،مما يضعها في تصادم معه[23]. ولذلك نجده ينبه إلى خطورة الصحوة الإسلامية،ويضعها في مصاف الثورات العالمية الكبرى،مثل الثورة الفرنسية والروسية. إلا انه يتنبأ بان هذه الثورة سوف تخمد في العقدين الثاني والثالث من القرن الواحد والعشرين،وذلك بسبب فشلها،كما يزعم،في حل قضايا الظلم الاجتماعي والضعف الاقتصادى والعسكري والقمع السياسي،مع نجاحها في إثبات إن الإسلام هو الحل في مشكلات الهوية والعقيدة والأخلاق[24].

إذن،فان نموذج صراع الحضارات الذي قدمه هنتنجتون يجعل الخطر على حضارة واحدة،هي الحضارة الغربية،وهو آت من حضارتين فقط هما الصينية والإسلامية من أصل سبع حضارات أخرى صنفها النموذج. بل نجده يؤكد إن الحضارتين (الصينية والإسلامية) ستؤديان إلى عدم استقرار النظام العالمي. الأولي اقتصاديا والثانية سكانيا. وستفرز السنوات المبكرة من القرن الواحد والعشرين إحياء قوة غير الغربيين وثقافتهم ومن ثم تصادمها مع الغرب. ولا غرابة أن طريق مواجهة هذا التصادم،عنده،هو القوة، ذلك لأنه

---

[20] نفس المرجع،ص32.

[21] نفس المرجع،195.

[22] نفس المرجع،ص197.

[23] نفس المرجع،ص48.

[24] هنتنجتون،صامويل: المرجع السابق،ص199.

يقرر في وضوح إن سيطرة الغرب على العالم لم تأت من تفوق أفكاره ولا قيمه ولا دينه بل من تفوقه في استخدام العنف المنظم[25].

وبالرغم من محاولات هنتنجتون تلطيف حدة نتائج نموذجه بالحديث عن إمكانية التعايش السلمي بين الحضارات،إلا أن آراءه تفضي إلى نتيجة واحدة يمكن تلخيصها في إن الحضارة الغربية هى المثل الإنساني الأعلى الذي يجب أن يحتذي وان يحمى. وأحسب أن السياسات التي تنتهجها الولايات المتحدة وبريطانيا وعددمن الدول الغربية الآن تسير وفق نموذج صراع الحضارات الذي رسمه علماء المستقبليات الغربيون وعلى رأسهم صامويل هنتنجتون. هذا وقد حذر بعض العلماء الغربيون الغرب من مغبة محاولة فرض حضارته علي بقية حضارات العالم، بزعم أنها الأكثر ر ِ ○ ُ قياً . فهاهو "أرنولد تويبتي" في كتابه "الحضارة تحت الاختبار " وبعد أن درس إحدى وعشرين حضارة من الحضارات التي قامت في مختلف دول العالم ينتقد وبشدة ضيق أفق الغرب ووقاحته،حسب وصفه، والتي تتبدى في الأوهام المتمركزة حول الذات،بأن العالم يدور حوله،وأن هناك شرقاً ثابتاً وغرباً متقدماً . وكذلك قدم "أوزفالد سبنجلر" نظرية دائرية في التغيير الاجتماعي في كتابة "انهيار الغرب".وقد درس سبع حضارات محاولاً اكتشاف عوامل صعودها وهبوطها. فهو ،كما يقول لم يجد فائدة لافتراض وجود نهر واحد للحضارة (حضارة الغرب)،وأن الآخرين جميعاً أما روافد له أو يضيعون في رمال الصحراء. وكلاهما – تويبني وسبنجلر – يستحث الحاجة إلى منظور أوسع والى فهم أعمق للصراعات الثقافية الكبرى في العالم وتعدد حضاراته. إلا أن هنتجتون لا يريد أن يفصل بين الحضارة والثقافة بل دمجهما ليجعل الأخيرة (الثقافة) هي التغريب "Westernization ". فهو لا يريد للمجتمعات غير الغربية أن تأخذ بالتحديث "Modernization" ،أي التكنولوجيا الغربية،دون التغريب،أي الثقافة الغربية. وهو ما تقوم به بالفعل المجتمعات غير الغربية خاصة الأسيوية والإسلامية في تمسكها بثقافتها وقيمها مع أخذها بأسباب التكنولوجيا الغربية المتقدمة. وقد أشار قاسم إلى نفس هذا المعني عندما تحدث عن مقولة توحيد الثقافات لإحداث التقارب بين البشر ،تلك المقولة التي روج لها الكثير من العلماء الغربيين. فهي،في نظر قاسم،مقولة حق أريد بها باطل. حيث يريد الاستعمار الغربي التمكين لحضارته وثقافته لتحل،بدعوى العالمية،محل كل الحضارات والثقافات الوطنية لدى بقية شعوب العالم[26].

3- ثنائية المادي – القيمي ومشكلات الإسلام مع الحضارة الغربية

كما أورد موسى[27] ،فقد تلاحظ إن هنتنجتون قد استخدم مصطلحي الحضارة والثقافة في شئ من الترادف مع إن التمايز بينهما جد هام، خاصة وأننا نتحدث عن صراع وشيك بين الحضارات .والحضارات

---

(25) موسى،عزالدين عمر: "بين حوار الحضارات وتصادمها: رؤية مغايرة". ورقة علمية قدمت في مؤتمر مؤسسة آل البيت للفكر الإسلامي،عمان،المملكة الأردنية الهاشمية،جمادى الأول1423هـ/أغسطس2002م، ص24.

(26) قاسم،عون الشريف: "الإسلام والثورة الحضارية". دار الجيل،بيروت/دار المأمون المحدودة،الخرطوم، 1991م،ص14.

(27) موسى، عزالدين عمر: مرجع سابق،ص13.

بالضرورة لا تتصارع بل هى تتكامل من اجل تحقيق أهدافها في إسعاد البشرية ومن شان هذا التكامل إلا يترك مجالا للصراع وهو وا إن حدث فهو بين الثقافات واختلافها فيما تحمله من مكونات مادية أو قيميه. وأحسب إن هذه الاختلافات الثقافية هى في حد ذاتها نعمة وليس نغمة إذ أنها تثرى الحضارة الإنسانية وذلك بما تحمله من فرص للتنوع والتعدد الحضاري. مصداقا لقوله سبحانه وتعالى في محكم تنزيله (ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم والوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين) الروم الآية 22. ورغم ما يقال من إن الحضارة هى عربة الثقافة ، وان هناك ترابطا وتشابكا قويا بين الاثنين إلا أن لكل حضارة مكونان: مادي و قيمي. وأحسب انهما يقعان على طرفي متصل متدرج يمثل أحد أطرافه الصفة المادية البحتة بينما يمثل الطرف الآخر الصفة القيميه أو الروحية البحتة – وكلى الصفتين هى حالات مثالية لا وجود لهما في الواقع المعاش، بل إن الحضارات تقترب أو تبتعد من إحدى الطرفين بناءً على ما تحمله بداخلها من مكونات مادية وقيمية بينما تمثل الحالة الوسط توازنا بين المكونين. ويمكن رسم المتصل المادي – القيمي على النحو التالي:

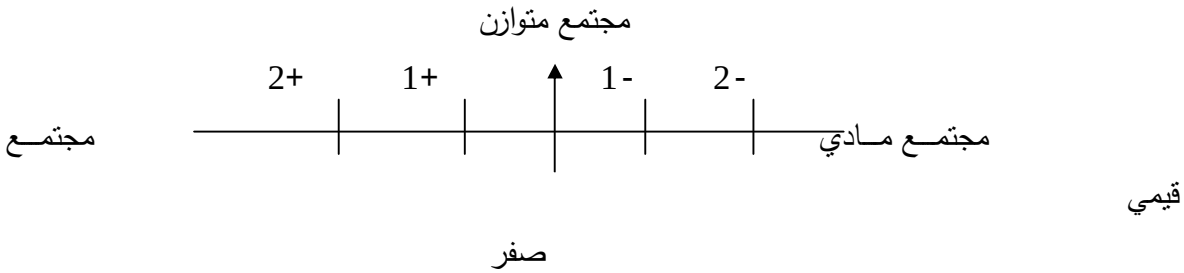

حيث إن :-

-2 مجتمع مادي بنسبة 100%

-1 مجتمع مادي بنسبة 75%

صفر مجتمع متوازن 50% مادي 50% قيمي (روحي) .

+1 مجتمع قيمي بنسبة 75%

+2 مجتمع قيمي بنسبة 100%

وتستند فكرة المتصل المادي – القيمي (الروحي) من الناحية النظرية كما ألمحنا لذلك سابقا على افتراضين أساسيين :

1-إن الحضارات الإنسانية تقع بناءاً على مقدار ما تحمله من مكونات مادية وقيميه (روحية) في نقطة معينة داخل المتصل.

2- وأن هذا الوضع يصاحبه بالضرورة سلوك يتسق معه.

وبالرغم من صعوبة الوقوف علي الخصائص المادية والقيمية للحضارات الثمانية التي صنفها همنتجتون لنتمكن من تحديد موقعها علي المتصل المادي – القيمي،إلا أننا نستطيع تحليل ذلك بصورة عامة،مع محاولة مقارنة موقع الحضارتين الغربية والإسلامية في هذا المتصل،بوصفهما الحضارتان المتنافستان الآن على الساحة الدولية. فنقول: إن لكل حضارة من الحضارات جانبها الفكري الذي ترتكز عليه،والذي يحدد علاقات الناس بعضهم ببعض،وعلاقتهم بالمجتمع وبالكون وخالق الكون. ويأتي هذا الفكر، في معظمه من الأديان، سماوية كانت أو محلية، إذ يوجد في كل حضارة مكون ديني إلا انه (أي الفكر) قد يأتي أيضاً من فلسفة وضعية تقوم علي استخدام منهج البحث العلمي الامبريقي في إثبات حقائق الأشياء واستخلاص النتائج دون الأخذ بالأمور الغيبية. والحضارة الغربية ليست محايدة في ذلك، فهي تستند في جانبها الفكري علي الديانة المسيحية، كما أن بها جانب وضعي علماني وصفه مؤسس علم الاجتماع الغربي " أوجست كونت" (1798م-1857م) "بدين الإنسانية"زاعماً إن لهذه الديانة رسلها وأنبيائها (دارون ، نيوتن ، فرويد... وغيرهم) والذين يجب أن يمجدوا لمساهمتهم في تقدم الإنسانية.

ويختلف هذا الجانب الفكري في احتوائه لمظاهر الحياة المختلفة من حضارة إلى أخري،وإذا كانت اليهودية قد انحصرت، كرسالة دينية، علي بني إسرائيل،إلا أن المسيحية،رغم عالميتها،قد جاءت ديناً روحيا لم يتضمن تشريعاً يتعلق بالدولة أو بتنظيم المجتمع. ولذلك اعترفت ومنذ أيامها الأولي ، بأن تنظيم الحياة وترتيب أمور الحكم والسلطة ، إنما هي من اختصاص الإمبراطور الروماني بينما تختص الكنيسة برعاية الأمور الروحية. ومن هنا جاءت أولى بذور الفكر العلماني في الحضارة الغربية،والداعي لفصل الدين عن الدولة، أي الفصل بين المادي والروحي في حياة الإنسان علي وجه الخصوص. هذا وقد حاول القديس "أوغسطين" (354م-435م) ،أحد فلاسفة الفكر السياسي المسيحي،إعطاء تبرير فلسفي لهذه الفكرةذاكراً أن الإنسان مخلوق مزدوج التكوين،فهو من روح وجسد، ومن أجل ذلك فهو يعيش في مدينتين في ذات الوقت. فهو يعيش بأشواقه الروحية في"مدينة الله"،وهنا يرنو إلى الكنيسة ويتطلع إليها من أجل إنقاذ روحه وتخليصها من الشر والآثام،وهو،في نفس الوقت،مضطر إلى العيش داخل "المدينة الأرضية" لكي يلبي ويشفي حاجاته الجسدية. فكرس أوغسطين بذلك المبدأ العلماني الذي يفصل بين الدين والدولة. بل نجده قد

دعا صراحة إلى ضرورة أن يكون القانون الذي يحكم الناس قانوناً وضعياً[28]. ومن ذات الفكرتين (فصل الدين عن الدولة ، والقانون الوضعي) جاءت المبادئ العامة للحضارة الغربية. ومن قبل ذلك جاءت الديانة اليهودية حاملة لواء العنصرية ورفض الغير ونبذهم ولنفس هذا السبب جاءت المسيحية دين تسامح وا ٍخاء للخروج باليهودية من مجالها العنصري الضيق إلى نطاق أرحب وأوسع من المحبة بين البشر. ولكن المسيحية،والتي جاءت انطلاقاً إنسانياً من إسار العنصر وشهوات الجسد،سرعان ما وجدت نفسها أسيرة للنظام الاجتماعي للدولة الرومانية،إذ أن غلبة الحياة المادية على هذا النظام قد أضعفت من تأثير الدين علي الحياة الاجتماعية،فبقي الدين علي وجه العموم في دائرته الشخصية. ولقد كان هذا النفي للدين مصدر تدهور الحضارة الغربية،وذلك بسبب فشلها في إحداث التوازن المادي – الروحي في حياة الناس الخاصة والعامة. وكان هذا التوازن قد أختل بصورة كبيرة في بدايات القرن العشرين وذلك حين انصرف الأوربيون إلى استثمار نتائج العلم والتكنولوجيا في تطوير الحياة الأوربية علي أسس مادية. وقد تبلور ذلك في الاتجاه العلماني الذي لم يقف عند حد إعطاء ما لله وما لقيصر لقيصر ،كما نادي بذلك رجالات الكنيسة عند بداية انتشار المسيحية،بل ترك كل شئ لقيصر وأهمل،أن لم يكن الغي،جميع ما لله،بحيث ابتعد الدين عن كل مجالات الحياة و أجهزتها التربوية والسياسية والاجتماعية والقانونية. وفي هذا الطور الأخير اتسم العلم بالإلحاد،وبرزت بوضوح الاتجاهات المادية التي عبرت عن نفسها في نظريات مختلفة.

والحقية أن المعركة في الغرب لم تكن بين العلم والدين علي عمومة ، وا ٍنما كانت بين العلم وتفسير خاص للدين،اتبعته الكنيسة،أبعده عن العلم،فكان لابد للمجتمع الأوربي من الثورة علي الدين،وكان أيضاً أن ارتبط المنهج العلمي بالعداء الديني. هذا وقد جاءت الثورة العلمية في القرنين السابع عشر والثامن عشر لتؤكد المنهج الطبيعي في تفسير الكون . فكان اكتشاف قانون الجاذبية بواسطة اسحق نيوتن وما ترتب عليه من نظريات ميكانيكية في حقل الفيزياء كانت سبيلاً لتفسير حركات الكواكب وكل الأجرام السماوية،ومن بينها الأرض، تفسيراً مادياً لا يحتاج إلى تدخل قوة أخري غير قوانين الطبيعة. ومن ثم فقد قالوا أن الكون ليس في حاجة إلى قوة ربانية لتدبير أموره. ثم كانت نظرية النشوء والارتقاء التي جاء بها دارون في مجال الأحياء سبيلاً،هي الأخرى،إلى إلغاء فكرة الخلق المستقل للإنسان. ومن ثم التخلص مرة أخرى من حقيقة خلق الله سبحانه وتعالى للكون[29]. ثم جاءت نظريات أخرى في مختلف مجالات العلم لتقيم من كل ذلك فلسفة مادية شاملة تفسر بها حياة الناس وتنفي بها الدين وأثره في الحياة. ومما زاد الناس ثقة في هذا الاتجاه المادي ازدياد انتصارات العلم وقدرته علي تحقيق التقدم المادي الكبير الذي حدث في حياة المجتمعات الغربية.

هذا وقد كانت نظرية دارون قد أعطت ،كما يور د قطب، إيحاءين متصاحبين: الإيحاء بالتطور الدائم الذي يلغي فكرة الثبات،والإيحاء بحيوانية الإنسان وماديته بإرجاعه إلى الأصل الحيواني،من ناحية

---

[28] إمام،زكريا بشير: مرجع سابق،ص257.

[29] محمد قطب: مرجع سابق،ص105.

أخرى،وحصر القوي التيتؤثر فيه في القوى المادية المتمثلة في البيئة أو الطبيعة،وا ٍغفال الجانب الروحي إغفالاً تاماً ،وا ٍغفال تدخل الله في عمليه الخلق أو في عملية التطور. ومن هذين الإيحاءين أخذ الكثير من العلماء الغربيين التوسع في الاتجاه المادي للحياة البشرية[30].

وا ٍذا كان اليهود ليسوا هم الذين انشاؤا الفرقة بين أوروبا والدين،إذ أنها قد قامت بالفعل منذ عصر النهضة الأوربية،إلا أن الكثير من علمائهم قد تدخلوا في الأمر ليجعلوا من ذلك،كل في اختصاصه،نظريات يسندها العلم. ونأخذ علي سبيل المثال لا الحصر أعمال ثلاث من مشاهير علمائهم: "كارل ماركس"،"سيجموند فرويد" و"اميل دوركايم". لقد اتخذ اليهود الثلاثة نواحي مختلفة من الفكر؛ أما ماركس فقد كان ميدانبحثه علم الاقتصاد ، ولكنه لم يقتصر بحثه علي النواحي الأكاديمية في هذا العلم، وا ٍنما وضع مذهباً كاملاً للحياة وطد فيه أركان التفسير المادي للتاريخ ، وهو تفسير يجعل للقوي المادية السلطان الأكبر علي نشاط الإنسان. فتاريخ البشرية،كله،ما هو إلا اختراع آلة جديدة أو تغير أسلوب للإنتاج. والعمليات الاجتماعية والسياسية والمعنوية ليست قيماً أصيلة قائمة بذاتها في الكيان البشري،إنما هي انعكاس لأسلوب الإنتاج في الحياة المادية. وفي ظل هذا التفسير المادي للتاريخ لا يوجد الله ولا الوحي ولا الرسالات،فهي،عند ماركس،وهم من أكبر أوهام البشرية. ولقد انتشر هذا الاتجاه المادي فدخل كل الحياة الغربية،علي الاتساع. فلغرب كله،الذي لم يصبح شيوعياً من حيث المذهب،قد أخذ بالتفسير المادي للتاريخ،وصارت الحياة الغربية القائمة في ظل النظام الرأسمالي لا تفترق في أساسها الفكري عن مثيلتها في العالم الشيوعي[31].

وا ٍذا كان ماركس، وتحت مظلة البحث في علم الاقتصاد، قد توصل إلى أن الدين والأخلاق ليسا قيما أصيلة في النفس البشرية، فإن فرويد قد توصل إلى ذات النتيجة تحت مظلة البحث العلمي في علم النفس. فالنفس عند فرويد هي الميدان الأصيل للحياة،وعن تركيبها الذاتي تنبثق الأفكار والأفعال. والحياة النفسية عند فرويد ليست حيوانية فحسب،ولكن تتبع كلها من جانب واحد من جوانب الحيوان،هو جانب الجنس المسيطر علي كل نشاط الإنسان.أما الجانب الروحي فلا وجود له علي الإطلاق عند فرويد[32].

وعلي عكس ذلك تماماً يقف دور كايم،فهو لا يعترف بأن الكيان النفسي للفرد هو أساس الحياة الاجتماعية، بل العكس هو الصحيح،إذ أن الحياة الاجتماعية عند دوركايم هي التي تشكل مشاعر الفرد وتوجه أفعاله. وهو (أي دوركايم) في جولاته الواسعة في علم الاجتماع قد عني،بصورة خاصة،بأن يقول أن الدين ليس فطرة،وأن الزواج ليس فطرة،وأن الأخلاق ليست قيمة ذاتية، بل هي ليست ثابتة علي حال معين ،

---

[30] نفس المرجع ص39.

[31] أنظر: محمد،قطب: مرجع سابق،ص40-42.

[32] انظر: نفس مرجع،ص45-46.

وا ٍنما تأخذ صورتها من المجتمع الذي توجد فيه. فالمجتمع،أو ما سماه دوركايم، "بالعقل الجمعي" هو الأصل في كل الظواهر الاجتماعية وليس الإنسان[33].

نخلص فنقول أن التفسير المادي هو الذي يحكم الحياة في الغرب،ويحكمها في ذات الأمرين اللذين أراد اليهود الثلاث تحطيمهما تحت ستار البحث العلمي: الدين والأخلاق. أنهم لم يقولوا أن المفهوم الكنسي للدينهو المنحرف،وهو الذي يحتاج إلى تقويم،وا ٍنما قالوا أن الدين ذاته هو المنحرف،وهو الذي يحتاج إلى تقويم. وكذلك لم يقولوأن المفهوم السائد للأخلاق هو المنحرف،وهو المحتاج إلى تعديل،وا ٍنما قالوا أن الأخلاق،في ذاتها،ليست قيمة حقيقية من قيم الإنسان. صحيح أن الدين في الغرب لم يصادر ،وصحيح أن معظم الناس في الغرب يؤمنون بأن هناك رباً خلق الكون والحياة والإنسان،وصحيح أنهم يلبسون الصليب ويذهبون إلى الكنيسة كل يوم أحد ، ولكن هذا الدين لم يكيف شيئاً من حياة الناس الواقعية في المجتمعات الغربية.بل انه قد اصطدم،ومنذ عصر النهضة بكل نواحي الحياة في المجتمعات الغربية،وقام صراعاً عنيفاً بين الدين والتطور،انتهي بتنحية الدين عن الحياة العملية في الاقتصاد والاجتماع والسياسة وفي العلم عموماً ، ولم يبق له إلا ركن ضئيل في حياة الإفراد.

وكان الجديد الذي أتى به الإسلام أن اكمل النقص في الرسالات،السماوية بان ادخل الدين في حياة المجتمع،ومزج بين قيم الدين و مجرى الحياة اليومية في وحدة عضوية فاعلة,تصبح فيها قيم الدين وفضائله وأحكامه جزءا من حياة الناس الخاصة والعامة. و أعمال الإنسان في الإسلام مترابطة,المادي منها و المعنوي, الاقتصادي و الاجتماعي و السياسي و غيرها, كلها, و إن بدت منفصلة أو متخصصة،إلا أنها ذات ترابط و وثيق. وهي متجهة في كلياتها لعبادة الله و إرضائه[34]. وذلك مصداقا لقوله تعالى(قل إن صلاتي و نسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين) (الأنعام آيه162).

وبالرغم من وجود أسباب التغير في الحياة البشرية بسبب نمو وتطور العقل البشري، إلا أن هذا العقل لا ينمو منفردا، بل أن ذلك يتم داخل الإطار الكلي للإنسان. سواء في ذلك الإنسان الفرد، كما تناوله فرويد ورفع من شأنه وأحط من قدر المجتمع، أو الإنسان المجتمع والذي عني به دوركايم ورفع من شأنه وأحط من قدر الفرد.

ومن هذه العلاقة العضوية المزدوجة (الفرد والمجتمع) يقيم الإسلام نظامه للحياة البشرية، مركزاً في ذلك علي خلق الشخصية الإنسانية التي توازن بين متطلبات الجسد ورغبات الروح،وبين حاجات الفرد الخاصة والتطلعات العامة للمجتمع.هذا وقد وضع الإسلام بهذا المنهج المتوازن حداً فاصلاً بين غلبة العواطف والشهوات واستقرار الحياة الاجتماعية ، فأكد بذلك سيادة العقل والعلم. والقرآن،دستور الإسلام،كله دعوة للعلم، ولقد جاءت أولى آياته تأكيداً لهذه الدعوة،حيث جاء قوله سبحانه وتعالى "أقرأ باسم ربك الذي

---

[33] أنظر: نفس مرجع،ص51-55.

[34] قاسم،عون الشريف: مرجع سابق،ص174.

خلق * خلق الإنسان من علق * أقرا وربك الأكرم * الذي علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم" (العلق،الآيات 1_4). إلا أن العلم في القرآن مقرون بالإيمان وهو الآخر مرتبط بالعمل ، بل إن الإيمان هو الذي يعطى العمل قدسيته وا نسانيته.

ولكانحياز العلم في الغرب إلى جانب المادة،وا غفاله جانب الروح،قد اطفي علي الإنسانية قدراً كبيراً من الأنانية،وأدخلها في صراعات وأعمال عنف وحروب وكثيراً من مظاهر الظلم الاجتماعي والاستغلال الاقتصادي والمطامع الدنيوية الأخرى. فالإنسان،وبمثل احتياجه لتطوير حياته المادية عن طريق استخدام العلم،فهو أيضاً ،في أمس الحوجه لتطوير حياته الروحية والارتقاء بها. وأحسب أن الجانب الروحي من هذا التطور هو الأصعب،ذلك انه يتضمن مجاهدة للنفس وعدم الامتثال لرغباتها،والنفس كما يقال أمارة بالسوء. والأديان هي المسئولة عن هذا الارتقاء الروحي في شخصية الإنسان. يحدث ذلك في المجتمع المسلم عن طريق الممارسة المستمرة للعبادات،وعدم الإسراف في الملذات،والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ،فتتحقق بذلك الوسطية التي تحدث التوازن في نفس الإنسان وفي حياة المجتمع.

وتحقيق هذه الوسطية كما يورد قاسم،ليس حلاً لمشكلة المسلمين وحدهم،وا نما هي حل لمشكلة الإنسانية جمعا[35]. ذلك أن القانون وحده لا يستطيع كبح جماح شهوات النفس البشرية،بل أن الأمر يستلزم أن يكون هذا الكبح جزءاً من كيان الفرد وضميره. وهذا هو ما هدف إليه الإسلام من صياغة الفرد صياغة اجتماعيه تتوجه فيها طاقاته الروحية والجسدية لخلق المجتمع المستقر والمتوازن. فالخطوة الأولي في تعديل مسيرة الحضارة الإنسانية تبدأ، إذن، بالرجوع إلى الإيمان،والسعي لاكتشاف الدين في حياة الإنسان من جديد. وهذا الرجوع،كما يذهب قاسم،ليس ضرورة روحيه فحسب إنما هو،أيضاً ،ضرورة اجتماعية واقتصادية وسياسية. فالعلاقة بين حياة الإنسان الروحية وحياته المادية أدق وأعمق مما ذهبت إليه النظريات المادية التي جعلت للمادة الغلبة علي الفكر. فأصبح الإنسان الذي منحه الله نعمة العقل كمثل غيره من أدوات الطبيعة التي تسيرها الحتمية وتدفعها قوة الطبيعة العمياء. ذلك في حين أن الإنسان وبابتعاده عن الطبيعة في بيئته الخارجية يصنع الحضارة،ثم بابتعاده عن الطبيعة في بيئته الفكرية يصنع إنسانيته[36].

و الحضارة الإسلامية من اكثر الحضارات حظاً في المجالين العلمي والروحي علي السواء،والمجتمع المسلم مجتمع علم وثقافة وحضارة بالضرورة. ذلك أن الإسلام يفرض علي معتنقيهقدراً لازماً من العلم بكتاب الله لمعرفة فروضة وأحكامه. والمجالان يمتدان في الإسلام لينظما حياة الأفراد الخاصة والعامة،وعلاقاتهم بالوجود وبخالق الوجود. وبذلك يجد الفرد السلم نفسه في انسجام مع ذاته ومع مجتمعة

---

[35] نفس المرجع،ص58.

[36] قاسم،عون الشريف: مرجع سابق،ص59-60.

ومع العالم ومع الكون وخالق الكون،ليتم له بذلك الطمأنينة والراحة الفكرية والنفسية التي تمكنه من تحقيق إنسانيته[37].

وعلي العكس من ذلك تماماً جاء الابتعاد عن الدين في الحضارة الغربية وا ٍهمالها له كعنصر فعال في إحداث التوازن في حياة الناس الخاصة والعامة،وتأكيدها علي قيم ومتطلبات الحياة المادية. وهي في هذا المجال تقدم للعالم، اليوم،أغلب السلع الاستهلاكية،وتتحكم بالتالي في التجارة الدولية،وتسيطر علي الأسواق العالمية الرئيسية،وهي أيضاً تمتلك وتدير النظام المصرفي العالمي وتتحكم في كل العملات الصعبة. وهي كذلك تقود معظم البحث العلمي والتقني وتسيطر بالتالي علي الصناعة وخاصة صناعة الأسلحة ذات التقنية العالية،والتي تفرض بها سيطرتها الحالية علي العالم. أما الصورة علي القطب القيمي فتختلف تماماً ،فهي صورة حضارة تواجه تفككاً رسياً واجتماعياً وتفسخاً أخلاقياً وانتشاراً للجريمة وتفشياً لتعاطي المخدرات والكحول والجنس.

لقد قصمت الحضارة الغربية،ابتداء ً ما بين السماء والأرض من روابط،فاهتمت بجانب الأرض (الجانب المادي) فنمي وتطور ،وأهملت جانب السماء (الجانب الروحي) فكبت وتخلف. وجاءت الثورة الصناعية بعيدة عن الدين،وخيل للغربيين أن التطور الذي حدث هو حصيلة لهذا الابتعاد. وهذا وهم كاذب،ذلك أن الدين ليس عدواً للتطور وهو الذي أنزل أصلاً للإنسان ليعمر به الأرض ويحقق خلافة الله عليها،وذلك عن طريق نعمة العقل التي أودعها الله فيه دون سائر المخلوقات. والقرآن،كما أشرنا سابقاً ،كله دعوة للعلم وأعمال للفكر وتسخيرهما من اجل التطور.

ونتيجة لغلبة الحضارة الغربية وتخلف الحضارة الإسلامية في النواحي المادية،وهي نواحي هامة في حياة الإنسان،نشهد اليوم محاولات التدخل المستمر للغرب في المجتمعات الإسلامية،بهدف تحطيم الدين فيها. فقد شكلت وزارة الخارجية الأمريكية،في الآونة الأخيرة،لجنة أطلق عليها "لجنة تطوير الخطاب الديني في الدول العربية والإسلامية" هدفها تقليل الاهتمام بالجانب الديني في حياة هذه المجتمعات. وقد رأت اللجنة أن إحدى الوسائل الفاعلة لتحقيق هذا الهدف هو إغراق الشعوب العربية والإسلامية في صور مختلفة من أنماط الحياة الغربية المادية. وهذا هو عين نموذج التغريب (Westernization) الذي اتبعه الغرب في تعامله مع المجتمعات التي غلب عليها كما أشرنا لذلك في مطلع هذا المقال.

وهذه هي نفس النواحي (الدين والأخلاق) التي أراد اليهود الثلاث سابقي الذكر -ماركس،فرويد ودوركايم، تحطيمهما في الغرب،ثم عن طريقة في بقية العالم. فقد أفهمت أفكارهم،الخبيثة،الغرب بأنة حين يفلت من إطار الدين وقواعد الأخلاق فهو يتقدم. وأن هناك معركة مقدسة يجب أن يخوضها الغرب ضد الرجعية والجمود والتأخر في المجتمعات غير الغربية وخاصة الإسلامية،والعربية منها علي وجهة الخصوص. ولقد تبع ذلك بالفعل جهود مكثفة من الغرب لزعزعة الكيانات الحضارية لتلك الشعوب وتشويه

---

[37] نفس المرجع،ص176.

تفاعلاتها الوطنية ومسخها،وذلك بإقامة مؤسسات بديلة مستمدة من قيم الغرب ومناهجه وأساليبه سواء كان ذلك في مجال التربية والتعليم والثقافة أو في مجال التشريع،أو حتى في مجال سلوك الناس الخاص والعام في البيت والمجتمع. وكانت النتيجة ازدواج في الشخصية علي احسن الفروض أو ذوبانها في النموذج الغربي وهو الأمر الأعم والمشاهد[38].

ويعني ذلك في نهاية التقييم أن كل منا قد انحرف؛ نحن المسلمون قد انحرفنا لأننا ابتعدنا عن قيم حضارتنا الإسلامية،حضارة العلم والفكر والتوازن المادي_والروحي. وهم الغربيون قد انحرفوا لتمسكهم بحضارتهم ذات المذهب الفردي والغلبة المادية. ولكننا نحن المسلمون،رغم انحرافنا،إلا أننا نملك السبيل إلى التقويم،نملك الإسلام،تلك القوة الإصلاحية الكبرى،وهو طريقنا إلى التقدم حال رجوعنا إلية. ونحن محتاجون لمثل هذا الرجوع، بل محتاجون لثورة ثقافية حضارية تبعث فينا الإسلام من جديد،وتخرجنا عن التقليد والذوبان في الآخرين،وتفتح أمامنا الطريق للنمو الذاتي. أما الغربيون فلا طريق أمامهم،وهم علي ماديتهم وأنانيتهم وغرطستهم التي جسدت الصراع وجعلت منة نظرية تحدث عنها هنتنجتون وغيره من علماء الغرب،ليس أمامهم سواء الضياع. فأي الطريقين هو الذي يكتب مستقبل البشرية وينقذها من دمار وشيك ؟ !

الهوامش

1/ التويجري ، عبدالعزيز بن عثمان: "*صراع الحضارات في المفهوم الإسلامي*". ورقة علمية قدمت في مؤتمر مؤسسة آل البيت للفكر الإسلامي،عمان،المملكة الأردنية الهاشمية،جمادى الأول 1423 هـ / أغسطس 2002 م.

2/ المهدي ، الصادق: "*الحضارات الإنسانية تصارع أم تحاور*". ورقة قدمت لمؤتمر حوار الحضارات،جامعة النيلين، 6_8 مارس 2003 م.

3/ إمام ، زكريا بشير: "*مدخل إلى النظرية السياسية في القرآن الكريم*". دار هيزر للنشر، 1999 م.

4/ حنفي ، حسن: "*الإسلام والغرب: صراع أم حوار*". ورقة علمية قدمت في مؤتمر مؤسسة آل البيت للفكر الإسلامي ،عمان، المملكة الأردنية الهاشمية، جمادى الأول 1423 هـ / أغسطس 2002 م.

5/ قاسم ، عون الشريف: "*الإسلام والثورة الحضارية*". دار الجيل ، بيروت / دار المأمون المحدودة، الخرطوم، 1999م.

6/ قنوص ، صبحي محمد: "*أزمة التنمية: دراسة تحليلية للواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي لبلدان العالم الثالث*". 1990 م.

7/ محمد قطب: "*التطور والثبات في حياة البشرية*". مكتبة وهبه 142 شارع الجمهورية،عابدين، القاهرة.

[38] قاسم،عون الشريف:مر جع سابق،ص14.

8/ موسى ، عزالدين عمر: "*بين حوار الحضارات وتصادمها : رؤية مغايرة*". ورقة علمية قدمت في مؤتمر مؤسسة آل البيت للفكر الإسلامي ،عمان،المملكة الأردنية الهاشمية،جمادى الأول 1423 هـ / أغسطس 2002م.

9/ نافعة ، حسن: "*المثقف العربي والأمير الأمريكي:فؤاد عجمي نموذجاً* ". المستقبل العربي ، العدد 289، مركز دراسات الوحدة العربية ، الحمراء ، بيروت،1103،2090 لبنان، مارس 2003 م.

10/ هنتنجتون ، صامويل: "*صدام الحضارات: لإعادة صنع النظام العالمي*". سايمون وشيستر ،مركز روكفلر، نيويورك ،1999 م ، ترجمة طلعت الشايب.

ملخص الورقة :-

لقد إتبع الغرب في تعامله مع الحضارات التي غلب عليها نموذج الصراع ، والذي نتجعنة قدراً كبيراً من عدم الاستقرار العالمي. والحضارات لا تتصارع ، بل هي تتكامل من أجل إسعاد البشريةوالصراع وا ِن حدث فهو بين الثقافات واختلافها فيما تحمله من مكونات مادية وقيميه.فكل ثقافة تحمل بين طيأتها قدراً من هذين المكونين والذين يمكن وضعهما في متصل مادي_قيمي، بحيث تقع كل الحضارات الإنسانية في نقطة معينة داخل هذا المتصل، وذلك حسبما تحمله من مكونات مادية وقيميه.

والحضارة الإسلامية من اكثر الحضارات توازناً بين المكونين ، بل ربما اُتهمت بأنها اكثر ميلاً للمكون القيمي واكثر تأكيداً علي القيم الروحية. وعلي العكس من ذلك تماماً جاء ابتعاد الحضارة الغربية عن الدين وتأكيدها علي قيم ومتطلبات الحياة المادية.

ونتيجة للتقدم المادي الهائل الذي أحرزته الحضارة الغربية وتخلف الحضارة الإسلامية في هذا المجال،رغم أهميته،نشهد اليوم محاولات التدخل المستمرة للغرب في شئون المجتمعات الإسلامية بهدف هدم الدين فيها، ونجاحهم في ذلك أيما نجاح. وكانت النتيجة ازدواج في شخصية الفرد المسلم أو ذوبانها في النموذج الغربي وهو الأمر الأعم. ولا يمكن للمجتمعات الإسلامية الخروج من هذا الواقع المرير والمشين إلا بالرجوع للدين أولاً ثم باعتماد ثورة ذاتية أساسها العلم والتكنولوجيا واستخداماتهما بصورة واسعة في مجال الإنتاج والتنظيم والإدارة وفي مناحي الحياة الخاصة والعامة.

العنوان

جمهورية السودان_ *الخرطوم*_جامعة النيلين_كلية التجارة والدراسات الاقتصادية والاجتماعية،قسم الاجتماع.

ص ب 12702 فاكس 776338_11_249 +

تلفون منزل 484774 جوال 24912989093+

E-mail:

omaryousif@sudanmail.net

E-mail: omaryousif2000@yahoo.com

ملوحظه :للاتصال تلفونياً يفضل الاتصال بالمنزل.